الفصل الثاني

أيوب في الغربة

رائعة السياب الخالدة ((سفر أيوب))

ها هو الشاعر الكبير الرائد بدر شاكر السياب يعلن لنا سفره الأبدي الذي وسمه بسفر أيوب وما عاناه من مرضه، يتفرج على نديف الثلج المتساقط على شوارع مدينة الضباب لندن من خلال شباك غرفته ويعلن لنا آلامه وأوجاعه ووحشته، والضياع بين أنـــاس لا يعرفهم ولا يعرفونه، يعلن التوجع وقلة النوم والآلام المزمنة، يعلن الجزع والخـــوف مـــن الموت الذي لا مفر منه طيلة رقوده في المستشفى هناك، ينظر إلى نديف الثلج الذي ما زال يتساقط على كل الأشياء ويجعلها بيضاء ناصعة، يترك العنان لعينيه المسهدتين بالـــدموع وكأنه أراد لها أن تقلَد سماء المدينة وهي تتلقى مطر السماء المنهمر، ليسكب هو شيئاً من إبداعه وهو متلفع في غربته، يتفرج على المدينة وهي تغتسل بماء البرد والزهور، متـــذكراً بلوى النبي أيوب (ع) وصبره، ويعلن من ساعته صبره هو الآخر علـــى بلـــواه ومرضـــه بقصيدته التي بقيت خالدة ((سفر أيوب)) وهو يقول مخاطباً الجليل عز وجل :

((**لك الحمد مهما أستطال البلاء**)) .

وهي أول عبارة أطلقها السياب في لندن حيث إستأنف بعدها نظم قصائده بملحمتـــه الخالدة هذه !!

فالشاعر وجد في غربته حافزاً مشجعاً للنظم، فراح يرسم صوره المبدعة وكتابة الشعر، فكان محوره الغربة ومعاناة الفراق لأهله ووطنه، وخيال جيكور وبويب ومائه وأسماكـــه، ولم يخرج من جلده إلى غير هذا إلاَ بالغربة والبعد الذي يلفه بالبعد عن الوطن !!

مما حدا به لأن يصرخ عالياً من على سرير **مرضه يقول** :

وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المدى ،

ولا يهدأ الداء عند الصباح ،

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

حيث تمثل هنا بصياح النبي أيوب من على فراشه :

((لك الحمد،

إن الرزايا ندى ،

وإن الجراح هدايا الحبيب ،

أظم إلى الصدر باقاتها ،

هداياك في خافقي لا تغيب)) [1]

وهنا يربط ألمه مع جراح النبي أيوب (ع) من جهة، وأعراس الميلاد في لندن وهدايا الزهور من جهة أخرى، حيث يرى أن هداياه من الرب، وإن ما أبتلاه كان مكتوباً عليه وواقعاً لابد منه، فما عليه إلاَ أن يصبر ويتقبلها ويضمها إلى صدره !!

((جميل هو السهد أرعى سماك ،

بعيني حتىَ تغيب النجوم ،

ويلمس شباك داري سماك ،))

وهذه التفاتة ثانية يكتبها الشاعر ويتضرع بها إلى الله تعالى بلمسة من سناه تطوف على سريره الراقد عليه وتخفف عنه هذا العناء !

ويتذكر عياله وأولاده حيث يسمع غيلان يناديه بقلب مفجوع ويسمع أنينه وهو ينادي أمه ويسألها عن أبيه فيما كوى الفراق قلبه الصغير ويبكي الوحدة والبعد الذي يلفهم عنه :

---

١ - سفر أيوب

((من خلل الثلج الذي تنثه السماء،

من خلل الضباب والمطر ،

ألمح عينيك تشعان بلا انتهاء ،

أسمع غيلان يناديك من الظلام))

فها هو يعلن استسلامه للضياع والموت معانياً من الغربة والوحدة أولاً، واستفحال مرضه ثانياً :

((فهل أستوقف الخطوات ،

أصرخ أيها الإنسان أخي ،

يا أنت يا قابيل خذ بيدي على الغمة ،

أصرخ في شوارع لندن الصماء ،

((هاتو أحبائي)) ؟

ولو إني صرخت فمن يجيب

صراخ المنتحر ،

تمر عليه طول الليل آلاف من القطر))

ثم يعلو صياح الشاعر ونبرة صراخه الذي يدمي القلوب مؤلفاً بين الجوع والوحدة من جهة، والبرد والداء من جهة أخرى، :

((عيون الجوع والوحدة،

نجومي في لجى صارعت بين

وحوشه برده ،

وإن البرد أفضع ،

لا .. كأن الجوع أفضع ،

لا .. فأن الداء يشل خطاي،

ويربطها إلى دوامة القدر))

ثم يبكي شاكياً همومه إلى الثلج الذي ما زال ساقطاً على كائنات لندن، شاكياً له هموم الغربة والبعد عن الأهل والأوطان :

((أيها الثلج رحماك،

إني غريب في بلاد البرد ،

والجوع سكرى))

ثم ينفد صبر أيوب إذ يدعو ربه مغاضباً ((رب إني مسني الضر..))

ويرتحل الشاعر نحو ربه شاكياً جزعه بنداء يفتت الصخور ألماً وحسرةً ، نداء الآيـــس من الشفاء والرجوع إلى وطنه وأهله :

((يا رب أيوب قد أعيا به الداء ،

في غربة دونما مال ولا سكن،

يدعوك في الدجن ،

يدعوك في ظلموت الموت ،

أعباء ناء الفؤاد بها ،

فارحمه إن هتفا ،

يا منجياً فلك نوح مزق السدفا ،

عني أعنَي إلى داري إلى وطني))

ثم يدب اليأس والخوف في قلب الشاعر من الموت في الغربة، حيث يرعبه خيال المقبرة الغريبة مستحلياً مرارة الألم، مفوضاً أمره إلى الله تعالى ليلهمه الصبر والإلهام، متمنياً لـــو يقبر في تربة بلده وينتهي به الأمر هناك بين قبور الأحبة مردداً :

((يا رب يا ليت إني لي

إلى وطني ،

عود لتلمسني بالشمس

أجواء ،

منها تنفست روحي

طينها بدني ،

ومائها الدم في الأعراق ينحدر ،

ياليتني بين من في

تربها قبروا))

ويظل الشاعر العملاق يسطر مأساته وغربته في قصيدته الملحمية ((ســـفر أيـــوب)) لتبقى شاهدة على الغربة، حيث يرجع الشاعر إلى الله تعالى مفوضاً أمره له ويستجدي منه الرحمة :

((قالوا لأيوب ..

جفاك الإله ،

فقال لا يجفو ،

من شدَ بالإيمان ،

لا قبضتاه ترض ..

ولا أجفانه تغفو))

وأخيراً أود أن أسطر في هذه الدراسة المبسطة ما أرخه لنا هذا الشاعر العملاق من شعر في الغربة، مسجلاً العذاب والشوق لفراق الأهل والوطن، والدفء إلى أحضان الأحبة وفيء النخيل في جيكور ومائه وطينه وجلسات أصحابه وأرواحهم العذبة التواقة إلى المحبة والسلام !!

((يا غربة الروح في دنيا

من الحجر ،

والثلج والغار والفولاذ

والضجر ،

يا غربة الروح ..

لا شمس وأأتلق

فيها ولا أفق))

فالدلالة الرمزية في مقاطع هذه الملحمة الشعرية الطويلة ((**سفر أيوب**)) وما تحمله من معاناة لوحشة الغربة والبعد عن الأهل والوطن، وآلام المرض والعوز، ذات طاقة عالية من إيصال الفهم والتعبير عن الألام التي تفرضها الغربة، إلى المتلقي والدارس لهذه الملحمة الشعرية، حيث تظل العبرة في هذا البحث المتواضع عن شعر الغربة والتغرب ذات إطر

وأطاريح كثيرة يعبر عنها الكتاب والشعراء كل حسب إدراكه وتجاربه، لأنها ذات صلة وثيقة بالحياة والمعاناة والتغرب !!

وهذا غيض من فيض لقصيدة واحدة لشاعرنا المبدع بدر شاكر السياب، قالها من على سرير المرض في غربته الطويله هناك، بقيت خالدة على مخلدة مآسي الغربة والتغرب عن الأوطان !!

والكاتب سفينة وشراع، تبحر أفكاره حيث تشاء في بحر لجي هائج الموج، حيث تنطلق رياح أمواجه الثقافية وفق هواه وكيفما يشاء، حسب قوة التأثر والمعاناة التي توحي إليه أن يسطر ويؤرخ للحدث الذي يؤثر فيه !!!